تداعيات مسخ
مسالم للغاية

إصدارات:

جرش مدينة الثقافة الأردنية

2015

- تداعيات مسخ مسالم للغاية
- قصص
- عامر علي الشقيري
- الناشر وزارة الثقافة

عمان ـ الأردن

شارع وصفي التل

ص . ب 6140 ـ عمّان

تلفون : 5696218 / 5699054

فاكس : 5696598

E. Mail: info@culture.gov.jo

- الطباعة: مطبعة السفير
- الترتيب والإخراج الداخلي: إحسان الناطور

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2015/1/20)

رقم الردمك (2– 180 – 94 –9957 – 978)

● جميع الحقوق محفوظة للناشر: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

● All rights reserved. No part of this book may be reproduced . stored in a retrieval system. or transmitted in any form or by any means without the prior written permission of the publisher.

قصص

عامر الشقيري

تداعيات مسخ مسالم للغاية

2015

إهداء:

أشرف وحشة
حفظت أخطائي معك كاملة
أعدك ألاّ أكررها.
..
سأقترف ما هو أفدح منها!

جثة

ربما كانت تؤدي طقسا من طقوسها المجنونة وتعرّت دون وعي منها، لكنه ما كان ليعرف ذلك مسبقا ويتأنى قبل أن يقدم على فعلته.. وهذا لا يعني شيئا الآن ما دام أن جثة مضرجة بدمها تتمدد على أرضية المطبخ..

ثم إن القصة هكذا تقول.. هذا ما يريده الكاتب وربما هو مجنون على أي حال.

الشرفة امتداد ضروري لغرفة الضيوف.. فسحة من أمل قدمها البنّاء للغرفة كي لا يراودها الملل ويستنزفها الشعور القاتل بأنها لا تغدو عن كونها مكعباً اسمنتياً مهمته الاصغاء لثرثرات لا طائل منها والتكتم عليها..

إذن ربما وقفت على الشرفة وأطلقت تنهيدة طويلة ثم مر

من هناك سرب عصافير مهاجرة فتمنت لو تطير وبالطبع ستكون ملابسها وقتئذ مجرد حمولة زائدة.

في الغرف الأخرى تواصل الأشياء عملها بصبر وحب لأن السيدة ستأتي في أي لحظة...الراديو يواظب على إصدار ذبذبات صوتية على نحو متقطع كسرا للملل ربما، المكواة جاهزة لاستقبال قميص آخر، حبل الغسيل يهتز فرحا بخفته، والمنفضة تتثاءب لأن أحدا لم يلقمها بأعقاب سجائره حتى اللحظة.

في المطبخ تتمدد المرأة ولا شيء يزعجها أو يعكر عليها موتها..

مثلي تماما.. ممدداً بالقرب من شاشة الحاسوب وأكتب.. مضى وقت طويل لم أستخدم فيه قلمي... وأنا لا أكتب بالأحمر وهذا الذي على قميصي ليس حبرا بطبيعة الحال!

نهار عصي على الفهم

ما هذا النهار العصي على الفهم؟

أرى أطفالا يتجمهرون حول مهرج عابس ويسعون جاهدين لإضحاكه.. فتاة تدخن بشراهة عند سور مدرسة الذكور وتنتظر صديقها.. رجال يشطفون درج العمارة، أسمع تذمرهم، وأمهات يشربن القهوة على الشرفات.. شيوخ يدخلون الحانة التي في أول الشارع ومراهقون يقطر الماء من أكمامهم يستعدون لدخول المسجد.. رأيت عصفورا يركض في الشارع خلف قطة مسكينة ورأيت دجاجا يتحلق حول جثة تدور في سيخ شواء على نار هادئة في حديقة عامة.

يوم عصي على الفهم.. الشوارع تقريبا خالية من السيارات.. استوقفنا شرطي المرور وطلب رخص السائق.. ثم فتش

الباص من الخلف وفتشني شخصيا الأمر الذي أغاظني.

قلت مخاطبا الشرطي: أرجوك أنا على عجلة من أمري..

لحظات وأخلى الشرطي سبيلنا

.. وانطلق بي باص نقل الموتى.

رهان

الثالثة صباحا، المدينة تستعد للنوم ولم يبق في الحانة سوى رجل وامرأة يتعانقان وثمل صرح أنه مغرم بتصفيفة شعر مقدمة النشرة الجوية ثم نهض بتثاقل وغاب في الظلام.. وكاترينا النادلة اللطيفة تتذكر أنها رأت هذا المشهد في فيلم قديم جاهدت لتتذكر اسمه لكنها نسيت، إنها تمسح الطاولة التي غادرها الرجل للتو وتخوض رهانا حادا مع ذاتها بزجاجة نبيذ على أنهما سيغادران الحانة قبل الثالثة والنصف.

في تمام الثالثة والنصف بدأ الرجل بتقبيل المرأة، وحزنت كاترينا لأنها لم تربح رهانا واحدا مع نفسها منذ أربعة شهور، ها هي تجلس في قلب الحانة وتحدق في يديها المنهكتين.. في تمام الساعة الرابعة تحمل المرأة حقيبتها ويحمل الرجل هاتفه المحمول ويخرجان من هناك مسرعين وربما سمعت

كاترينا المرأة المذعورة تقول عند الباب: يا الهي قد نتأخر عن طائرتنا،كان علينا الخروج عند الثالثة والنصف على أقل تقدير.

سقوط

أقف في ساحة عامة.. على رأسي تفاحة شهيّة والجنود يطلقون عليّ النار بلا هوادة.. أعرف أنني الهدف لا التفاحة.

الرصاصات تدغدغ الجسد فأضحك وتفضحني اهتزازت الكتفين.. فيشتدّ حنقهم عليّ وتزداد زخّات الرصاص، وأنا لا أفكر سوى بابتسامة ريم الغامضة العصيّة على الفهم وهي تقضم التفاحة في مطعم شعبيّ رخيص مساء أمس.

العرق ينزّ من جبهتي وأنا أحاول السيطرة على اهتزازات الكتفين.. إنها حالة من البلادة التامّة/ الضحك في مكان وزمان غير مناسبين على الاطلاق وأعتقد أنني قرأت شيئا عن هذا الموضوع في كتب علم النفس. الرصاص الغبيّ ينصبّ على الجسد والجسد لا يستجيب.. بعد وقت قصير

يصبح الأمر مملاّ ثم يصبح المشهد كئيبا يبعث على الأسى..
أتذكّر أغنية لفيروز ستنتشلني مما أنا فيه لو غنّيتها الآن وقبل أن أبدأ الغناء يصيب أحدهم التفاحة ويفجّرها.. فأسقط صريعا!

حالة

تفقدت أزرار القميص جيدا بطريقة غير مباشرة ثم مددت يدي بحرص وتأكدت من سحاب البنطال.. لم تلاحظ ريم ذلك لأنها كانت مشغولة بتنظيف ما سكب من فنجان القهوة في صحنه الصغير، لكنها لاحظت ارتباكي فسألتني إن كان المقهى لا يعجبني، أومأت برأسي نافيا ولم أخبرها بقلقي الدائم من أن أكون قد أدخلت أحد أزرار القميص في عروة أخيه أو أن أكون قد نسيت سحاب البنطال..

ماذا تكتب حاليا؟

أكتب عن عاملة بار لطيفة وحزينة على الدوام اسمها كاترينا.. لا أعلم كيف تحتفظ بذلك الكم الهائل من الحزن دون أن تفصح عنه..

قالت ريم قاصدة إغاظتي: من المؤكد أن لها عشيق.

لا، لديها زوج بدين يقول إنه يعيش في مجتمع مليء بالحشرات وهو إحداها.. لكنه استيقظ ذات يوم ليجد نفسه قد تحول إلى آدمي مكتمل وقد باغتته أطرافه الأربعة ولم يتمكن من المشي بعد وكاترينا قلقة حيال الأمر ونادمة لأنها تجلب له كل ما يطلبه من كتب.. مؤلفات كافكا على وجه الخصوص.

ضحكت ريم وضحكت معها ثم دفعت الحساب ونهضنا.. حدقت في مرآة المقهى وصعقت لمرأى قميصي المثير للضحك كان فضفاضا من الأعلى وضيقا من الأسفل نتيجة خطأ في مكان أحد الأزرار.. يا للهول.. سحاب البنطال أيضا، نظرت لريم وقد حاصرتها عيون السيدات اللواتي يجلسن حولنا وبدا في تلك اللحظة تحديدا أنهن جميعا ينتمين إلى طبقة أخرى غير تلك الطبقة الكادحة التي نعرفها.

قلت لريم: مع أنني... ثم صمتّ. لأنها ذهبت.

الخطوة الأولى

«هيا يا جورج أنت قادر على فعلها.. توازن.. ثم خطوة أولى للأمام هيا يا عزيزي جورج»

ويظهر في المشهد جورج البدين وهو يترنح كأنه ثمل وكاترينا تغالب ضحكة طويلة عششت في صدرها ستتحول آخر المشهد إلى بكاء مرير تهتز من أجله ستائر المسرح، ثم تصبح الحقيقة ماثلة أمامها عندما يشتعل ضوء الغرفة وترى أنه ليس ثمة مسرح أو جمهور بل إنها تخيلت ذلك حقا وهي تشاطر جورج مأساة يومية تتكرر على نحو مقيت ولعلها نادمة الآن على كل ما اقترفته من كتب!

الصالون معتم وضوء الغرفة يشتعل وينطفئ مرارا وتكرارا

منذ شهر.. جورج يستند على كتف كاترينا ويرفع رجله اليمنى في محاولة للخطوة الأولى التي ستظل عالقة في الهواء لأنه سينهار ويسقط دفعة واحدة أمام كاترينا، التي ستغرق مجددا ببحر كآبتها وتبدأ فصلا طويلا من البكاء..

يوميات مواطن محترم

يحكى أن رجلا يحترم نفسه خرج في صبيحة يوم مشمس للقاء حبيبته في إحدى الحدائق العامة.. ارتدى الرجل أفضل ما لديه من ثياب ووضع أطيب ما عنده من عطر وانتعل حذاءه ومشى بخطى ثابتة حتى وصل الشارع وقبل أن يضع الخطوة الأخيرة على الرصيف بغية اصطياد تاكسي اكتشف أن الحذاء قد تمزق. خطا خطوته الأخيرة فسقطت أرضية الحذاء وتسمر الرجل مكانه.

كان على الرجل أن يشعل سيجارة وينتظر ثم يدندن أغنية دارجة.. وما لبث حتى أخرج هاتفه المحمول الفارغ من الرصيد وافتعل مكالمة طويلة ليبدو الأمر طبيعيا.

والحق أن الرجل وقع في حرج كبير ولم يكن بمقدوره أن يتصرف خشية أن يفتضح أمره ولم تواته أدنى جرأة ليتحرك،

خصوصا وأن حركة الناس هناك لا تتوقف. توالت الأيام والسنوات والرجل مكانه يقتات على ما يسقط من غذاء قريبا منه وساعده في ذلك وقوفه الملاصق لحاوية قمامة صغيرة..

ثم أصبح مع مرور الوقت هزيلا مثيرا للأسى.. أصبح جزءاً عديم الشأن من الرصيف، كشاخصة باهتة عديمة الفائدة. فقد الرجل أدنى شعور بالحزن أو مقدرة على البكاء وضعف سمعه وفقد البصر وازداد حنقه على العالم.

وأخيرا وبعد كل تلك السنوات حظي بمجيء صديقه الوحيد الذي سرعان ما جلب له حذاءً لا بأس به. انتعله واستأنف مشواره دون أن تكون لديه أدنى فكرة أن الكوكب تطور على نحو مرعب.الشوارع تزحف وتوصلك إلى مبتغاك والناس جميعهم حفاة. وبالطبع هو لم يسمع أو يرى الفتاة التي أشارت إليه وقالت: انظروا.. سأبول على نفسي من الضحك: ما زال في هذا العالم من ينتعل حذاءً!!

خوف

هل كنت خائفا منه إلى هذا الحد؟ بالطبع.

لقد ركضت.. ركضت أعواما وأعواماً.. ومن رعبي لم أشأ الالتفات للخلف، قلت :ربما هو على مقربة مني مما سيفاقم شعوري بالخوف.

ثم وصلت إلى نقطة البداية الأولى التي انطلقت منها قبل أعوام لأجده قادما صوبي من بعيد يركض.. بدا كهلا مرعوبا مثيرا للشفقة.. وكان علي أن أكتشف أنه يركض بعكس اتجاهي لأنه كان خائفا مني.. وبالطبع لم يلتفت للخلف لظنه أني على مقربة منه مما سيفاقم شعوره بالخوف.

ألفة

استفاق الرجل الوحيد في تمام الساعة السابعة صباحا مثلما جرت العادة ولاحظ أن شيئا من الألفة نشب بينه وبين كائنات البيت إذ أن السمكة التي تسبح في حوض المياه الملون استطاعت أن تخلخل الحزن الراكد في أعماقه.. تلمس أطرافه بقرف فباغتته آدميته من جديد ثم تقزز من الشعر الذي غزا وجهه.. ماذا يرى الآن؟ إنه يحدق عبر زجاج النافذة بكوم النفايات الملقاة على مقربة من المطعم وتجتاحه رغبة عارمة في البكاء.

يتوجه الرجل الوحيد إلى الشرفة بخطى متثاقلة ويحاول جاهدا أن يصرف جل تركيزه في القبض على حفنة مشاعر واضحة حيال المرأة اللطيفة التي تقول إنها زوجته.. وفي تلك الأثناء.. وفي غمرة تركيزه.. حطت على أنفه بعوضة صغيرة.. فانكمش على نفسه وانخرط في بكاء مرير.

كابوس

استيقظت.. حركت أطرافي وتأكدت أنني ما زلت حيا.. الطاولة التي أمامي طافحة بالقاذورات ولم تكن طاولة تحقيق على أية حال، أما الرجال المنمّقون ممن توافدوا على كابوسي فقد تبخروا الآن.

أشعلت سيجارة.. دخنتها على عجل ونمت.. في الصباح نظفت الطاولة من مخلفات السهرة.. فناجين قهوة، زجاجات فارغة، مكسرات، ويا للهول: ورقة كبيرة عليها جميع اعترافاتي!

أم

في اللوحة الأولى بيت صغير يطل على بحر أليف وثمة قارب يبحر صوب البعيد.

في اللوحة الثانية فتاة تجلس على طرف السرير وتنخرط بتفكير عميق.

في اللوحة الثالثة رضيع في سلة.. السلة على النافذة.. والنافذة ترهقها فكرة أنها ستظل بلا قضبان حديدية تقي الصغير شر السقوط.

في اللوحة الرابعة أم تطل من رأس الشارع.. على رأسها كيس كبير تسنده بيد وتمسك باليد الأخرى كيسا آخَرَ.

تنسل من لوحتها عندما يهبط الليل.. تقوم بتنظيف البيت وتدبر شؤونه.. تمشط شعر الفتاة وتصنع لها ضفيرة طويلة ثم تتوجه إلى الصغير وترضعه

تحمل كيسها وتخرج على عجل وقد اطمأنت أنه نام.. وفي كل مرة تصل رأس الشارع وتفطن أنها لم تغلق النافذة!

عشاء

للباب الذي صفقته السيدة خلفها بعنف أهل وأصدقاء كانوا يملأون الغابات.

للرصاصة التي سددها الرجل إلى رأسه بعد أن صفقت السيدة الباب شقيقات وزميلات معدن!

للدمية النائمة في حقيبة الكتف ـ التي تركتها السيدة خلفها ـ حزنها العارم، لأنها تعتقد أنها السبب الرئيس لنشوب الخلاف.. من أهداك الدمية؟!.. كان هذا السؤال.

للشرفة التي لم تحرك ساكنا عندما بكى الرجل على كتفها ضميرها الإسمنتي الذي لا يهتز..

للقارئ الذي لا تنطلي عليه هكذا قصص شغفه بما يبهج

للقاص الذي اختلق هذه القصة ونشرها وابتاع من مردودها وجبة عشاء: حياته الموحشة التي تخلو من البهجة تماما!

لقاء

كان حزينا كالدالية في حوش البيت.. موغلا في وحدته واستطعت أن أرى جرحا طفيفا في جبهته، ولو أمعنت النظر فيه من الداخل لعاينت قلبه المثخن بالجراح لكنه ابتسم في الحال.. رفعت يدي له مرحبا فرفع يده.. ابتسمت مجددا فابتسم وتذكرت شغفه بريم قبل السجن..

ما زلت تحبها؟! سألته من مسافة ليست قريبة ولاحظت حركة شفتيه ولم أسمع سوى صدى السؤال.. هل كان يتحاشاني؟

ما زلت تحبها؟! سألته من جديد عابسا.. فعبس في الحال وكان قد تمتم بكلمات تزامنت مع سؤالي فخمنت أنه قال: اذهب إلى الجحيم!

الجحيم يليق بك وحدك أيها الوغد.. قلت بغضب.. وقذفته بمنفضة السجائر... فتهشمت المرآة

وسرعان ما تحول إلى قطع صغيرة متناثرة مثيرة للضحك.

الرصيف

العصافير تزقزق بنهم على أسلاك الكهرباء، الباحة مبتهجة بميلاد قط جديد، والكرسي الوحيد لم يعد وحيدا.. تجلس عليه الآن طفلة بيدها كتاب مدرسي وتقرأ سورة الإخلاص بصوت عال. الأمهات منهمكات بشطف العتبات الكسولة، والآباء يدخنون «الهيشي» ويطربون لصياح الديكة المنتشرة في الحارة كدوريات شرطة.. والرصيف ينحني قبل نهاية الطريق بلطف وقد تعافى من الشعور بالمسؤولية عن سقوط فتاة التوى كعبها العالي عليه مساء أمس.

الطائرات تحلّق عاليا وتجوب السماء وتتوعد الكرسي الوحيد، العصافير ترحل، والدِّيك الأخير يأوي للقن، الأمهات يلذن بالدعاء والآباء يغلقون البيوت، العتبات تتجهم، والطفلة شُجَّ رأسها بعد أن تعثرت على الرصيف، والرصيف لديه من الحزن الآن ما يكفي لعشرين عاما قادمة.

التباس

إحدى الروايات تقول أن الرجل عاد إلى الحي بعد غياب طويل.. في السجن.. أو كان خارج البلاد أو في سهرة امتدت حتى الصباح وتفاجأ أن الحديقة حزمت أمرها ورحلت مخلفة وراءها مقعدا خشبيا واحدا لا يتسع لشخصين.. والشرفات تقلص عددها وأصبحت متجهمة على الدوام وربما فاقم شعوره بالأسى أن قطط الشارع لم تتعرف عليه وعاملته كغريب.

كانت النوافذ مغلقة بإحكام والأبواب موصدة والبيوت موحشة وربما صادف في الطريق كلبا ضالا رماه بنظرة عادية وغاب في الزقاق فاكتسب المشهد مزيدا من المأساوية.. ومن المحتمل أن السماء كانت متخمة بغيوم سوداء وأن الساعة كانت الثانية صباحا من يوم ثلاثاء عادي تماما لا يمكن أن

يحدث فيه شيء.

ويعتقد أن الرجل كان يريد البقاء لولا أنه دخل بيته ووقف مطولا أمام المرآة وفاجأته ملامحه الغريبة إذ لم يكن هو هو.. الأمر الذي استدعى أن يخرج راكضا من بيته ويغيب عن الحي تلك الليلة.. وإلى الأبد.

غربة

استيقظت.. لم أنم لأصحو.. فتحت جفني فقط.

في الواقع كنت واقفا في مدينة بعيدة وكان ثمة مطر خفيف يداعب ضفائر البنت التي قطعت الشارع حالا.. وأمعنت النظر في الوردة التي نبتت على طرف السياج، تلك التي قتلتني قبل ألف عام.. وسمعت ماجدة الرومي تغني: أخرج من معطفه الجريدة/ وكانت الجريدة مبللة وعناوين الأخبار جميعها على شكل تهديد ووعيد ومحاولات غير جدية للسيطرة على الأزمة والحيلولة دون تفاقمها!

وقررت أن أصطحب البنت في جولة داخل المدينة وأقطف لها الوردة لكنها تأخرت في المتجر وها هي تخرج الآن امرأة في الأربعين ومعها ثلاثة أطفال يحملون أكياسا ملونة.. ولم

أسأل نفسي لم توقف المطر وأين اختفت الوردة ولماذا علي المكوث في مدينة بعيدة دونما بنت بضفائر طويلة ودونما وردة.. !

القطيع

سقطت..

أو توهمت أن هذا حدث.

فضاء أسود وندف بيضاء تتطاير من حولي وأصدقاء ظرفاء يسقطون معي سقوطا هادئا يخال للمرء أنه تحليق

رأيت سوزان ترضع طفلتها وتغني لها بصوتها الغامق الذي أحب..

رأيت الحديقة تتسكع على شارع هامشي شاردة الذهن.. كانت وحيدة وخاوية..

رأيت خمس سنبلات نبتن على طرف السياج وكانت أمي تفترش ظل زيتونة وتبكي.. بكت أكثر مما يجب وبطريقة أربكت تتابع الصور التي رأيتها أو توهمتها.

مخرج يرتدي الجينز ويرفع نظارة شمسية فوق رأسه يظهر على المسرح فجأة ويعلن انتهاء المسرحية

يخرج الجمهور من الباب الخلفي للمسرح على هيئة قطيع.. رأيتني معهم.. وكنا سعداء لانتهاء المسرحية.. نحن الممثلون.. وكانت أدوارنا متشابهة.. تقتصر على الجلوس في المقاعد والتزام الصمت.. فقط.

تشغف

يا له من يوم!

تقول المرأة وهي تفرك جسدها الغض بالصابون وشعور جارف بالأسى ينتابها.. بإمكاني إنهاء الأمر وحالا، سأطرده... تتفقد شاماتها الثلاث وتقول لنفسها: هذا الجسد كاملا لي.. وتبتسم.

من أين يتسرب كل هذا الحزن؟!

يسأل الرجل نفسه وهو يهم بغسل وجهه من أثر صابون الحلاقة

سأتركها حالا.. يمرر يده على ذقنه الناعمة وشعر صدره ويقول بانتشاء : هذا جسدي كاملا لي.

مطر يهمي على المدينة ويغسل الأرصفة والشوارع وخطى

العابرين فيثير مخاوف الزوار من أن تنساهم المدينة.. ويطرق بخبث نافذة المرأة التي تهذي منذ الصباح: سيأتي وأطرده.. سيأتي وأطرده، ثم تحسم الأمر: سأذهب إلى هناك وأخبره ألا يأتي!

بعد دقائق معدودة تغلق المرأة بيتها وتخرج راكضة تحت المطر الذي اختلطت حبات منه بدموعها.. الأمر الذي منحها فرصة البكاء في الطريق إليه دونما حرج.

وجود

أعبر الشوارع تلو الشوارع بحثاً عنّي، أسير أمام المخبر الهزيل الذي يتبعني من أول العمر.. أسير ببطء ليستطيع اللحاق بي، و أفكّر: قد يحال إلى التقاعد فيما لو متّ على نحو مباغت!

يحييّني واحد من النقّاد المعروفين بتلويحة من يده.. نتبادل الشتائم في داخلنا لبعض الوقت و ندخل سوية إلى مقهى قريب.

أعود للبيت بعد تجوال طويل.. أتابع التلفاز لمدة نصف ساعة أتابع واحدة من تلك المحطات الدعائية، السيدة تتحدث عن حمّالات الصدر، وعن الراحة التي ستوفرها منتجات تلك الشركة للنساء.. تتحدث كما لو أن الصدر يشكل عبئا حقيقيا على المرأة.

أغلق التلفاز وأستديرناحية المطبخ.. أتناول عشاء خفيفا.. ثم أمضي إلى فراشي.. أتقلّب كثيرا قبل النوم «ربما أعاني فرط الوحدة!»، أنام بعد عناء كبير... في الصباح أنهض من فراشي مفزوعا، أفتح أبواب الغرف الثلاث.. أدور في البيت.. أبحث تحت الأغطية الملقاة في الصالون،تحت الطاولة وفي الحمام.. أبحث في كل مكان داخل البيت.. أبحث في كل مكان.. ولا أجدني!

غياب

نجلس أربعتنا على أحد أرصفة القرية، نتبادل نكاتا بذيئة وكلاما فارغ المضمون لا طائل منه، ثم نضحك بكل ما أوتينا من خسارة. ويحدث أن يشتدّ الليل وتصبح العتمة حالكة أكثر مما ينبغي، فينتبه أحدنا إلى قطة بلا رأس تتمشى بالقرب منا، يشير إليها بسبّابته ويقول: انظروا!

ويحدث أن ينفجر صوت فيروز آتيا من مكان بعيد، تغنّي: (راحوا).. فيسأل ذات الصديق الذي رأى القطة قبلنا: أين شاهدنا هذا من قبل؟!

ويحدث أن ينهض خالد عن الرصيف ويقول بلهجة صارمة لم نعتدها منه: هذا يكفي.. وينصرف إلى المقبرة.. بلا وداع.

تحمّل

البيت يجثو على صدر التلّة مثل وحش ضجر، يجتاحه الصمت وينزل فيه كضيف ثقيل الظلّ.

الأولاد كل واحد منهم مضى في طريق، الشابان تزوجا في وقت واحد تقريبا وهجرا البلاد في وقت واحد.

البنت تزوجت هي الأخرى وتقيم مع زوجها في مدينة بعيدة،

وحدها الأم تنخرط في تلبية طلبات العجوز الكثيرة، طلباته الطفولية في أغلب الأحيان..

اليوم أنهت مهامّها باكرا وجلست وحيدة في البيت تحتفل بذكرى زواجها الخامس والعشرين.. بينما خرج العجوز للمقهى كعادته، العجوز الذي ذوت ذاكرته ولم يفطن لهذه الذكرى.

ومع هذا هي سعيدة هذا اليوم.. لديها سبب وجيه لتكون سعيدة هذا اليوم،

فعلى الأقل ها هي تدخل عامها الخامس والعشرين معه ولم تفكّر حتى اللحظة ـ ولو لمرّة ـ في قتله.

لوحة

في المرسم يشتعل صوت فيروز وموجة صحو لذيذة تسري في جسد القط الممدّد قريبا من اللوحة،

بيت يستقر في منتصف غابة كثيفة الأشجار،

الغابة تبدو كرئة في بداية سرطانها والبيت كورم صغير أصابها من المنتصف،

الرسّام منهمك في صنع القهوة ويجاري الأغنية بصوته النشاز.. والفتاة كعادتها تتأمّل كائنات المرسم بإمعان ثم تتوقف طويلا أمام اللوحة وتتذكّر ما قاله لها عندما انتهى منها: على تلك التلة سنكون وفي ذلك الكوخ ستبدأ حياتنا التي نريد.

يدخل عليها بملابسه المتّسخة ذاتها حاملا فنجاني القهوة..
تبادله الابتسام وتحية الصباح، وتسعى جاهدة لإخفاء حزن عارم ينتابها
.. فهو لم يرسم منذ عامين.. غير التلة والكوخ.

ضحك

كان يوما حافلا بالقفز والضحك،
ذلك المهرّج العجوز..
ما زال يحتفظ بحسّ الفكاهة،
حتى بعد أن أضرم النار في نفسه على نحو غير مقصود..
وراح يركض بشكل جنونيّ في السوق!

تفقّد

تبدأ جولته التفقّدية المعتادة حال انحسار ضوء الشمس عن الحارة،

يتجوّل في حارته الكبيرة على مهل..

يلقي التحية على إمام المسجد العجوز الذي قال متهكّما بعد رد التحية : أبدو بصحّة جيدة لقد ذهب السعال إلى غير رجعة.

يسير إلى الجزّار.. يعمل جنبا لجنب مع ابنه، لا بد أن ابنه توقف عن الإفراط في الشرب وعاد لرشده ولا بدّ أن الجزار عدل عن فكرة قتله.

يمرّ بالبقّال الذي نجا من حادث سير مروّع، يمرّ بعمّال ورشة لا يتوقّفون عن المخاطرة بأرواحهم يمر ببائع الكعك

الذي لفحته حرارة الشمس طيلة اليوم...

يمر بأناس كثر ويشعر بخلل ما في هذه الحارة.. يشتري حاجيّاته، ويعود «الحانوتي» مستاء إلى البيت!

جثة ثانية

رجل في المطبخ يعدّ فنجان قهوته، لا يأبه بتسريحة شعر المذيعة وهي تسرد أسماء الشهداء مثلما لا يأبه بالقناصة الذين غزوا المدينة كالجراد.

رجل في المطبخ يعدّ فنجان قهوته يغنّي بصوت خفيض أغنية لا وجود لها، ألّفها ولحّنها للتوّ من تلقاء نفسه.

القناص يتذمّر من حرارة الشمس ولعلّه تذكّر حبيبة خائنة أو أماً ميتة أو أخاً نذلا أو لعلّه تذكّر دَيْنَاً أو حلماً صغيرا لم يتحقق.

المراسل يشير إلى القناص، والكاميرا تتنقّل في المشهد بينه وبين النافذة.. المذيعة تصمت على نحو مفاجئ

أتوقّف أنا عن الغناء وأستدير نحو النافذة لسبب وجيه..

و....

هروب

تجوّلت هذا اليوم في الساحة الواسعة التي تقع أسفل المبنى والتي تغصّ بأجساد تتجاوب مع شمس الظهيرة ـ كغيرها من الكائنات ـ بحميمة مفرطة.

الراهبة الطيبة أشارت إلى غرفة مهجورة أسفل البناية وأجابت على سؤالي عن الكنيسة : انظر لقد هجرها الجميع إنها مهجورة إلى حد مثير للبكاء.

حارس البنك قال: لم يعد هنالك بنك بعد أن عصفت في المنطقة أزمة اقتصادية فعلت بنا ما فعلت.

حارس الحديقة.. نبَّهني إلى أن الحديقة هي الأخرى لم تعد موجودة.. ربما ملّت الوجوه ذاتها من عشرين عاماً فقررت الرحيل.

العجوز في إحدى زوايا الساحة سعل مرتين وقال إنه حارس المتحف الوطني وأن أحدهم سرقه في ليلة لا ضوء فيها!.. وأبدى امتعاضه من بلادة المسؤولين ممن فرّطوا بهكذا ثروة ولم يكلّفوا خاطرهم عناء البحث عن السارق.ـ

أما أنا فحمدت الله أنني حارس هذا المبنى «مركز الشفاء للصحة النفسية والعقلية» لا لشيء.. فقط لأنني أتدبّر أمري جيدا مع المبنى الذي لم يفكّر ولو لمرة.. بالهروب!

رقص

المرأة الوحيدة توصد باب غرفتها جيدا في الفندق.. تتعرّى على مهل وما تلبث حتى تدخل في جولة طويلة من رقص غجريّ مصحوب بحركات مستفزّة غير مبررة،

الرجل الوحيد يوصد باب غرفته جيدا في الفندق، يتعرى ويبدأ الرقص.. رقص غير متقن ويبعث على الضحك،
الفندق يتجاوب مع الفكرة بحميمة مفرطة.. ويبدأ الرقص هو الآخر.
اهتزّ جيدا حتى أصابه التعب وانهار بالكامل.

«كان يوما مميزا حافلا بالرقص على أية حال» قال الناجي الوحيد.. الذي سحب من بين عشرات الجثث العارية.

طلاق

يجلس كل واحد منّا في مقعده والقطار يشقّ طريقه عبر حقول مترامية الأطراف،

أحدق من زجاج النافذة في التلال التي لابدّ أنها شهدت معاركَ ضارية لأجدادي العرب في حقبة ما،

فتاة في مقتبل الحب تجلس بارتخاء على المقعد المقابل لي.. لون شعرها يندغم ولون العشب الذي صبغته الشمس بالأصفر.

أقول في سرّي : سأصطحبها معي في رحلة طويلة نقطع فيها حقولا كهذه الحقول،سيرا على الأقدام.

ستكون زوجة رائعة،

خيّل لي أنها تركض نحو بحيرة صغيرة حطّ على ضفتها

الحمام.. كنت أركض خلفها بفرح،وعندما أدركنا التعب غفونا تحت شجرة لوز باسقة ونمنا بسلام.

كان يمكنني أن أستمرّ في حلمي.. لولا أننا وصلنا.. ولأنني لا أريد أن أظلم أحدا معي ويشاركني كل هذا الشقاء.. قلت في داخلي :عيشي بسلام أنتِ طالق! وكتمت ضحكا خفيفا في صدري.

الفتاة لملمت شعرها الفوضوي ونهضت.. وقبل أن تغادر نظرت إليّ وقالت بالعربية : شرقيّ!.. قالتها بقرف.. قالتها كما لو أنه قد وقع الطلاق!

السؤال

مجازا اجتزنا الحواجز كلها.. مجازا ركضنا في حقولنا الفسيحة فرحين بالسنابل وضحكات الأطفال.. مجازا تفقدنا البيادر وقطفنا الرمان عن كتف الجبل.. مجازا وقفت سلمى عند حافة المنحدر وقالت سأطير.. ومجازا طارت..

لماذا عندما أطلق الجنود النار.. متنا.. حقيقة؟!

نهاية

العائلة تتحلّق حول القبر والأسود سيّد الألوان،
الأقارب أدّوا طقوس الحزن كما ينبغي وتبادلوا على نحو متقطّع جملا خفيفة من باب المواساة.
البنت تذكرت عشيقها الذي حرمت بسببه تعليمها وانخرطت بالبكاء.

الشاب لمع في رأسه كل الأصدقاء والنادي الذي حرم منه بحجة مفسدة الأخلاق
الطفلة لمعت في رأسها أصناف شتّى لألواح الشوكولا التي حرمت منها بحجة تسوس الأسنان!
أما الأم فقد وضعت كفّها على صدرها عندما لمعت في رأسها

أخبار مرعبة لموتى عادوا للحياة لحظة الدفن

وبحجة المطر الذي سينهمر في أي لحظة.. قالت : بسرعة أهيلوا عليه التراب!

قذائف عمياء

القذائف العمياء تنهال على المدينة بجنون،

أصابت قلب الحديقة وأصابت المقبرة وغيّرت ملامح بعض الحارات.

ريم أرسلت ضحكة جذلى بعد أن توقف القصف وشرعت أنا في الحديث عن القبور التي نجت

قالت : ثمة موتى نجوا من موت ثان!

قلت ـ من باب السخرية ـ : يفرقنا الموت وتجمعنا القذائف.

توقفت عن الضحك ريم.. وأيقنت أن كلامي ضايقها إلى حد ما فقد تحجّجت بأنها لا تريد أن تجرح مشاعر من نجوا بوقوفها معي على الملأ!

وبسرعة: عادت إلى قبرها.. وعدت أنا إلى حارتي الخائفة من قذائف عمياء ستنهال في أي وقت.

نفور

دخلا الفندق الشعبيّ معاً.. اختارا غرفة متهالكة لا تطلّ على البحر، فالمدينة ضيقة ولا تتسّع لبحر صغير.

قال لموظف خدمة الزبائن: قهوة مرة كأعمارنا.

قالت للموظف: قهوة مرة كأيامنا.

المرأة دخلت إلى الحمام.. خلعت ثيابها واستلقت في حوض ماء ساخن.. دمعها زاده سخونة.

الرجل خرج إلى ورشة قريبة ليصلح السيارة ويعود.

المرأة تواظب منذ خمس سنوات على طلب فنجانين من القهوة المرة.. واحداً لها والآخرَ للرجل الذي خرج ليصلح السيارة المعطوبة، ولم يعد حتى يومنا هذا.

تشهيد

السماء مفعمة بالغيوم، والطيور تحلّق على ارتفاع منخفض مستجيبة لندائي العميق.

اعتقدت أن جبهة أخرى اشتعلت عندما انهمر الرصاص، لكن زغاريد الأمهات نفت حدوث اشتباك جديد.

أهازيج ورصاص وزغاريد وأنا العريس المحمول على الأكتاف.. العريس النائم في نعشه.

يا للهول، الأهالي يطلقون الرصاص بغزارة.. ها هي رصاصة أخرى تخترق صدري!.

ألم

الأم التي خسرت العائلة

البنت التي خانها عشيقها

الرجل الذي ضيع البيت

الولد الذي أدمن المخدرات

جميعهم سعداء لأنهم أدوا أدوارهم بمهارة عالية على خشبة المسرح

الجمهور وحده يتألم.

احتلال

المشهد المأساوي الذي تكرر أمامي في غير مرة أثناء دخولي إلى البيت وخروجي منه بشكل يومي دفعني للتصرّف بما تمليه عليّ شهامتي، القطة المنكوبة التي تظهر عليها آثار الجوع والمرض والتشرّد (يفوق تشرّد القطط العادي) تتمدّد على العتبة منذ أسبوع فقررت انقاذها ونقلها إلى داخل بيتي الصغير، قلت أحسن إليها وأقضي على خوفي من القطط الذي يلازمني من أيام الطفولة.

اعتنيت بها جيدا وأكرمت نزلها حتى تعافت، كنت أتركها في البيت وأخرج إلى عملي.. ولم أعرف بأمر القط اللعين إلا بعد أن انتفخ بطنها قليلا.

تعمّدت العودة من عملي باكرا واستطعت أن أضبط ذلك الوغد يفعل الفاحشة في عقر داري فانتفضت وطردته، وما

كان منها إلا أن قفزت وخدشتني في يدي، وبالطبع خدشت قلبي أيضا! وندمت لأنني أشفقت عليها منذ البداية.

تأقلمت على هذا الحال وصرت أرى الوغد يتردّد عليها وأغض الطرف.

القط يتجول في بيتي بحريّة كاملة يقفز ويأكل ويرمقني بنظرات حادة تدفعني لدخول غرفتي وأصب جام غضبي هناك.

أما هي فوضعت حملها في خزانة الألبسة.. وضعت ثلاثة قطط تمتلك نظرة القط اللعين ذاتها،

مضت الأيام والقطط احتلّت بيتي بالكامل، المكان لم يعد يتّسع لستّتنا، كان عليّ أن أتصرّف كأي رجل مسالم.. وأبحث عن بيت صغير للإيجار.

طمأنينة

الدجاجة الضّالة شعرت بسعادة بالغة لأن صاحب المزرعة استمرّ في البحث عنها، واندهشت من خوفه عليها من ضبع لئيم كاد أن يصطادها.. شيء من الطمأنينة هبط عليها بين يديّ الرجل، حتى أنها نسيت للحظة أسياخ الشواء المركونة عند باب القنّ الكبير!

كاترينا

كاترينا عاملة نشيطة، تمتلك يدا حانية وقلبا رهيفا يتّسع لكل البؤساء الذين يرتادون حانتها الوادعة.

تصحو قبل الشمس بقليل.. تمسح أرضية الحانة باكرا وتلمّع زجاج الواجهة الأمامية برشاقة بالغة ثم تدير عجلة المؤشر في الراديو لتصطاد صوت فيروز معلنا بدء نهار جديد.

كاترينا بارعة في نفض الحزن العالق في قلوب الزبائن وهم لا يتصوّرون كيف ستكون الحياة فيما لو ماتت على نحو مباغت.

القاص يجلس في ركن قصيّ من الحانة ويشرع بالكتابة عن نادلة طيبة تدهسها شاحنة قبالة متجر الزهور.

أما باقي الزبائن فمنشغلون بالشرب وتجاذب أطراف

حديث خفيف في محاولة لتقطيب جراح بعضهم بعضا، ومنشغلون بتقليب الاحتمالات حول كاترينا التي خرجت لمتجر الزهور ولم ترجع حتى اللحظة!

ضيافة

تتوقف الدودة المضيفة عن الثرثرة.. تقول مخاطبة الدودة الزائرة: بالطبع لن تخرجي من هنا دون عشاء.. وتمضيان بحماس إلى جثتي!

أسماء

أنجزت أعمال البيت باكرا، أعدّت فطورا مستعجلا للأولاد الذين حملوا حقائبهم وخرجوا إلى المدرسة بتثاقل شديد.

تحسست بطنها واطمأنت لحركات الجنين المشاكس.. سيكون شقيّا كباقي إخوته، فكّرت مبتسمة.

خرجت إلى الباحة وتنشّقت هواء رطبا منعشا وأخذت تغنّي لجنينها الذي لم يرَ النور بعد وتفكّر باسم مناسب له.

ظلّت تقلب أسماء عديدة في رأسها حتى وهي محمولة على أكتاف المشيّعين، لم تتوقف عن التفكير باسم مناسب لطفلها.

الجنين لم يكن يعنيه الأمر كثيرا.. فقد كان يسترخي نائما في تابوت حنون!

لحظة

في المطعم :أنا و أنتِ و كتاب أنيق لشاعر راحل..

الشاعر يتصفّح كتابه الأنيق و يشعر بالملل.. يجلس على المقعد المجاور لي.. يضع الكتاب على الطاولة، و يمعن في موته.

أنتِ بارعة في تجميد هكذا لحظات،

قلت : جمّدي هذه اللحظة قبل أن تهرب!

كتمت ضحكة خفيفة في صدري.. هبطنا الدرج.. والنادل ما زال واقفا قبالتنا و ينتظر الطلب!

مضى وقت طويل..

مضى عامان أو أكثر على تلك اللحظة.. النادل ما زال واقفا.. و أنا ما زلت أحدّق في عينيكِ.. والشاعر ما زال ميّتا..!

حروب

لا أذكر في أي قرن أو في أي عاصمة حدثت هذه القصة القصيرة جداً، قال:

أنا عائد ـ مرة أخرى ـ من معركة طاحنة.. أمسك بلجام حصاني الأصيل و نهبط التلة ببطء بينما ريم تلوّح لي على التلة الأخرى وتقذف شالها عالياً في الهواء.

ريم لا تحفل بمعاركي كثيرا،لكنها قد تحزن إذا ما حدثتها عن هزائمي الكبيرة و أمعنت فيها!

و أنا بطبيعة الحال أنسى هزائمي الكبيرة كلها عندما أقترب من تلك التلة وأقذف قبعتي عالياً في الهواء،

ظانا أنها ستلحق بشال ريم.. الذي طار إلى جهة ما.

محاولات

شاعر المجاز،في النزع الأخير من القصيدة يقتني مسدساً!
يستهويه شكل السماء المرصعّة بالنجوم.. يطلق رصاصة
فتسقط نجمة
عن جبين طفل نائم!
يفرك عينيه جيدا.. يلمح غيمة وحيدة شاردة...ويطلق
رصاصة أخرى
فيندلق الماء
من مزراب قريب!
شاعر المجاز لا يتوقف عن محاولات اصطياد الأشياء
يعود للداخل
ويطلق رصاصة في مكان ما
فيسقط وجه عن المرآة!

تعقيد

في أول أمسية أدبية حضرناها سوية.. كانت القاعة تمتلئ برجال يعتمرون قبعات فرنسية تستقر في حضن كل واحد منهم حقيبة كتف سوداء و يشربون السجائر بنهم.. ريم التي تجلس إلى جواري في الصف الأخير قالت : حمدت الله في سري لأنك لست معقّدا و لست مثلهم.

قالتها أيضا و نحن في السيارة،

حيث كنت أدعو كي لا تمتد يدها تحت المقعد لسبب ما وتتحسس قبعتي أو حقيبتي أو علبة سجائري !

غربة

قال الرجل في المقعد الخلفي : مضى على وجودي هنا يوم.. هذا هراء أقسم أن مادلين و سوزان و ليلى و باقي الفتيات أصبحن أمهات رزينات، المدينة تغيّرت كثيرا.. انظر يا رجل لا مقهى «الإسماعيلي» ولا كراسي قش ولا بائع الكعك و لا... أدفع نصف عمري لأعرف أين ذهب كل هؤلاء.

سائق التاكسي أشعل سيجارة و قال : لم أغادر هذا المكان من نصف قرن.. ومع هذا، أدفع عمري كله لأعرف أين ذهبت المدينة!

اهتمامات

ريم قالت إنها لا تخشى القناصة المنتشرين فوق أسطح البيوت ولا تخشى الموت كذلك، ثم أطلقت ضحكة مجلجلة في الحانة جذبت انتباه الزبائن فراحوا ينظرون إلينا بازدراء الأمر الذي أوقعنا في حرج كبير.

ريم لا تنوّع في القراءة هي مغرمة بالكتب التي تتحدث عن الطبخ ومولعة بالرقص والحفلات الصاخبة، قالت إنها تحبني لأنني طيب ولا أجيد الرقص ووعدتني أن تعلمني الرقص.

اصطحبتني إلى بيتها عند المساء وبدأت بتعليمي الحركات الأساسية في الرقص.. تقدّمتُ للأمام خطوة فتراجَعَت للخلف خطوتين ثم تقدمت نحوي على رؤوس أصابعها

فارتبكتُ. حاولت تطويقها بذراعيّ فدارت حول نفسها بشكل جنوني.

وبعد جولة طويلة من الرقص غير المتقن استلقت بجانبي على السرير، لم أخبرها بأمر شعرها الذي يغطي وجهي فقد كنت سعيدا بهذا.

قالت: التحكّم بكمية الملح المضافة هو سر كبير من أسرار نجاح أي طبق فاصولياء...ثم أغمضت عينيها ونامت ريم.

اعترافات

كان يفكّر في الغموض الذي اكتنف شرفتها لحظة الغروب، تبدو كمسرح جريمة تتستّر عليه بستارة محكمة التثبيت من الداخل.. وإلا لماذا تغلقها فترة الغروب.

ضحك في سرّه لغرابة الفكرة.

مادلين وقفت قريبا من الستارة.. فاكتسب المشهد مزيدا من الغموض. قالت: اسمي سميرة وليس مادلين، أمسكت دموعها وتابعت: وأنا لست راقصة باليه.. أنا راقصة مبتدئة في مكان شعبيّ رخيص. ثم جلست على الأرض وألقت رأسها بين ركبتيها وراحت تذرف الدموع بسخاء.

لم يجد ما يقوله لحظتها.. تزاحمت كلمات متفرّقة في حلقة لا معنى لها لو اجتمعت وظلّت عالقة هناك..

فكّر: المشهد لا يحتمل أي كلام من طرفي الآن.. كأن أعترف لها بأنني «إبراهيم»، وأنا عتّال في ذلك المكان الشعبيّ الرخيص!

الجدة

الجدّة الطيبة لاقت حتفها في حقلنا البعيد.. كانت تقف قبالة الدالية تحمل في يدها سلّة قش وفي عينيها دمع تحجّر على مرّ السنين.

الثقوب التي أحدثها الرصاص انتشرت على جسدها كمرض «الجدريّ» المقيت.

والجدّة مع مضيّ الوقت استحالت فزّاعة طيّبة تحرس أحلامنا المنسيّة هناك.. وتؤوب إلى سلّتها العصافير كل مساء.

أسئلة

الطفل يتشبّث بثوب أمه تارة ويهرول أمامها تارة أخرى، يستوقفه منظر الجنود وهم يرفعون علما كبيرا فوق أحد السطوح فيسألها عن العلم الجديد وعن نشيد لا يشبه نشيد الكتاب المدرسيّ.. الأم تنهره وتتابع الطريق.

الطفل يسأل عن الجنود، هل هم من الأخيار أم من الأشرار.. يسأل عن طائرات تجوب السماء وتتوعّد من هم على الأرض وعن سيّارات مدجّجة بالسلاح تجوب الشوارع كل حين.

في البيت يسألها سؤاله المعتاد قبل النوم: أين أبي؟ والأم تجيبه بصبر منقطع النظير: ذهب إلى السماء.

الطفل يحتضن دميته الغالية وينام على الجواب، فثمّة أب حنون سيهبط في أي لحظة من السماء.

نخب جديد

صديقنا الشاعر هوى بقبضة يده على الطاولة، رفس الهواء، ولوّح بثلاثة أصابع متوعّدا أعداء الأمة، كان ذلك في الأمسية الشعرية التي نُظّمت له وقد حضرها سبعة أشخاص، ستة منهم رفاقه وأنا أحدهم.

في طريقنا إلى البار تحدّثنا عن النضال بالكلمة وعن حبّ صارخ تحت القصف وأصدقاء كانت المعتقلات حافلة بهم.

في البار قرأ قصيدة حماسية أخرى تطرق فيها لغدر الأيام وللعمر الذي هرول سريعا إلى غير رجوع.

ثمّ شرب نخب البلاد التي سقطت ونخب ما تبقى من رفاق كما وشرب نخب الشيب والحب الطارئ وذكرى القصيدة الأولى والشعر الذي لا يموت.

في طريق العودة أوصلناه إلى بيته، حملناه إلى سريره وأقفلنا عليه الباب ثم عدنا لمتابعة أخبار حرب طاحنة تدور في بلد قريب، وخفنا كثيرا من نخب جديد قد يضاف إلى قائمة صديقنا الشاعر الطويلة.

وظيفة

الرجل الذي تسلّم وظيفته الجديدة في حديقة الحيوانات صار يعود منهكا إلى البيت كل مساء.. يستحم سريعا وينام.

الزوجة لم تقل للجارات أنها صارت تضع له الطعام في قدر كبير وتصب له الماء في دلو

والجارات لم يسألن عن النهيق الذي يأتي من غرفته آخر الليل!

مدينة

في المدينة تمثال لفارس متأهّب يمتطي حصانه ويحرسها من جيش جرّار سيفيض في أي وقت.

في المدينة كنائس عتيقة وأرصفة أليفة وشعراء تزدحم بهم المقاهي ولا يتوقّفون عن طرح تساؤلاتهم الغامضة.

فيها خبراء آثار ينقّبون بحماس بالغ عن آثار قد تدلّ على أناس ابتلعتهم المدينة في غابر الزمان.. وهم لم يعثروا سوى على أكياس قمامة دفنها السيّاح بحرص قبل رحيلهم.

صخب وازدحام.. أصوات تعلو وتهبط، باعة متجولون وعشاق ومحال تجارية تذيع أغاني تجعل من الظهيرة فترة محتملة على الزوّار.

في المساء تنطفئ المدينة على مهل كقنديل ينفد زيته ببطء.

تخرج من أحد الأزقةِ سيدة وحيدة، تجلس قرب التمثال وتميل برأسها على الحصان، تقول مخاطبة الفارس بسخرية: لو مرّة تدعوني للعشاء.. تذرف دمعتين ثم تمضي إلى بيتها في أقصى المدينة،

وعندما تستلقي في سريرها البارد، تسمع صهيل حصان، يأتي من مكان بعيد!

مزاح

اجتمعنا في المطعم التركي الفخم، خمسة أصدقاء لم تنل منّا الحياة بعد فلم نفترق.

صديقنا المرح قال وهو يمسح فمه بمنديل أبيض أنيق: زوجتي تحبّ مزاحي وتعجبها شخصيتي المرحة،

وأضاف: حاولت التخلص من تلك العادة لكنها كانت ترسّخها فيّ.. ومع مضيّ الوقت أصبحت تستقبل أي جملة ألفظها على أنها دعابة ما، أخبرها أني مريض فتضحك.. أعترف لها بخياناتي الكبيرة مع صديقاتها فتنفجر ضاحكة وتأمرني بالكفّ عن المزاح كي لا تختنق من شدة الضحك، دعوتها للعشاء فواصلت ضحكها.

قبل ساعة كانت تمسح نافذة المطبخ، أتيتها من الخلف وغرست السكين في خاصرتها.. تألمت ثم ضحكت وقالت هيّا يا عزيزي توقف عن المزاح واسحبها.. سحبتها وغرستها في خاصرتها الأخرى فتألمت وقالت: مزاحك ثقيل.

سالت الدماء على أرضية المطبخ.. تركتها وخرجت، كانت تنادي هيّا يا عزيزي توقف عن المزاح واسحب سكينك من خاصرتي.

صمت صديقنا المرح للحظة واعتقدنا أنه سينفجر ضاحكا ويقول: ها أنا أخدعكم من جديد، لكنه ـ وعلى غير العادة ـ انفجر فجأة بالبكاء!

الأرملة

الأرملة الوحيدة قلما تغادر البيت، فهي توقن أن يداً غير يد جارتها ستطرق الباب ذات مساء.

الجارة تزورها كل صباح، تبثّ لها همومها وتعدّد لها مصاعب كثيرة تواجه العائلة بعد أن كبر الأولاد، والأرملة تصغي إليها دون كلام.

الأرملة يلدغ الحزن قلبها كلما تذكرت ما حدث العام المنصرم عندما طرق الباب ولم تتمكن من فتحه لأنها كانت تستلقي في حوض الاستحمام.. كانت طرقات قوية لا تصدر عن يد أنثى على أية حال، وهي تبكي بحرقة كلما دخلت لتستحمَّ وتذكرت أنها أضاعت عريساً ذات مساء.

ملك

(واثق الخطوة يمشي ملكا)

قال في نفسه وتابع الطريق

.. إلى حتفه!

القناصة لا يعترفون بهذا الصنف من الملوك.

ركض

معلمة التربية الرياضية الجديدة وصلت إلى القرية بكامل رونقها،
تتمشّى بين صفوف الطلاب بنهدين معتّدين وجسد انسيابيّ رشيق.

تقضي يومها في الركض مع الأطفال في ساحة المدرسة..
تهرول أمامهم بخفّة غزال وهم خلفها يلهثون،
وفي طريقها إلى البيت يركض خلفها رجال القرية ومراهقوها وهم يلهثون.
المعلمة كلما اتصلت بها صديقة وسألتها ما الذي يجبرها على العمل هناك، ضحكت وأجابت: إنها تركض خلف لقمة العيش...كي تعيش!

أربع حجرات

بخطى وئيدة يحثها نحوك العجوز المنهك (يبدو مثل جدك الذي تجاوز المائة ويظهر مثل شبح في الممر حليق الرأس والذقن والحاجبين) يمد يده التي تحمل المشرط (كل شيء يرتجف بحكم السن سوى يده وهذا ظاهرة تستحق الدراسة.هل هي المهارة؟).. بلا مقدمات يضع المشرط على صدرك ويرسم خطا مستقيما وباليد الأخرى يمسح بقطعة شاش ما نز من الخط!

ما الذي أوصلك إلى مخزن هذا العجوز المهووس.؟ لا وقت للأسئلة.. طالما أنه مد يده كما لو أنه يمدها في «بقجة» وراح يبحث فيها عن شيء ما.. مدعاة للضحك هذا الذي يحدث.. يحيلك إلى ربطة عنق كانت من نصيبك عندما تدافعت مع أمك إلى «بقجة البالة» الضخمة التي ألقاها

الرجل السوري في الحي.. وقلت: هذه الربطة شدتها فتاة أوروبية شقراء بعنف وهي تراقص عشيقها وكادت أن تخنقه. كان خيالك لم يزل طريا وقتذاك! تضحك في سرك.. قبل أن ينقبض قلبك. يأخذ الرجل وقته في سحب الرئتين.. يضعها على الطاولة المقابلة.. كتلتين ضامرتين. تقول في سرك: أراهن بهما على أن ريم نائمة في حضن رجل غريب الآن. ربما تسكب من زجاجة الويسكي التي في ثلاجتك ما يكفي ليجعل ليلتها محتملة ورائقة إلى حد ما.. مجنونة ريم.. لو أنها هنا الآن لتوقفت فورا عن التدخين وإلى الأبد!

تحاول أن ترجوه أن يترك قلبك بحاله.. لديه ما يكفيه من الحزن. لكن العجوز المرعب يبتسم وهو ينتزعه كما لو أنه ينتزع مولودا من رحم أمه ويلوح به أمامك.. ماذا ستسميه؟!.. سأسميه منفضة سجائر!!

يضعه على الطاولة.. يصرخ: أربع حجرات.

يصرخ مجددا: كم حجرة؟

يرد الطلاب المذعورون بصوت واحد: أربع حجرات!

سيزيف

«هيّا لا تتوقفن عن العمل»...صرخت نملة بالعاملات.
«انظرن إلى سيزيف.. إنه لا يتوقف عن دفع حبة القمح الكبيرة تلك إلى الأعلى.»

فيسبوك

قولي لي ما اسمكِ الحقيقي. حبيبتي؟.
عندما تخبرني أنت باسمك الحقيقي.
أحبكِ أيّا كان اسمك. سأصنع فنجانا من القهوة وأعود.
حسنا، وأنا سأشرب الشاي وأعود.

صوت الزوجة من المطبخ: أين وضعت عبوة الشاي أيها اللعين؟!

رسالة من تحت الطاولة

ـ جرّب وادخل المقهى من جهة الشمال واسأل المخبر الجالس على الطاولة التي أمام المدخل تماما،ماذا تكتب؟

ـ قال إنه يدوّن معلومة من أجل الوطن!

ـ الآن جرّب وادخل المقهى من جهة الجنوب واسأل الشاعر الجالس على الطاولة التي أمام المدخل تماما، ماذا تكتب؟

ـ قال إنه يكتب قصيدة من أجل الوطن!

ـ هل عرفت الآن لماذا أصيب الوطن بقصر نظر؟!

ـ مسكين.. متى سيقرأ كل هذه الرسائل؟!

سرقة

ـ كم طعنة تلقّيت؟

ـ خمس طعنات.. هل أنا ميت؟!

ـ إنها أربع فقط.

ـ في الواقع هنالك واحدة تلقّيتها في القلب من زوجتي التي ضبطتها بالأمس نائمة مع جاري العزيز!، هل أنا ميت؟!

ـ اللص.. لو أخبرنا أنه يريد السرقة فحسب.. لمنحناه ما يريد دون قتال!

ـ شيء يدعو للغثيان.. نطعن بهذه الطريقة من أجل محفظتين شبه فارغتين. هل أنا ميت؟!

ـ لص لعين.. لقد قتلنا أكثر مما يجب.

ـ هل أنا ميت؟

ـ لا أدري.. لكن.. هكذا قصص تنتهي بوصول سيارة إسعاف.. لننتظر!

أحلام

تحلم الطفلة بدمية تمشّط لها شعرها.

تحلم الدمية المعروضة على الرف الأنيق بطفلة تتوسد ذراعها.

يحلم الطفل بطائرة ورقية تحلّق عاليا فوق تلك السهول.

تحلم قطعة كرتون كبيرة مثبت عليها أسعار السلع في المحل التجاري أن تصبح طائرة في يد طفل يركض في سهول بعيدة.

تعود الطفلة بعد يوم طويل في التسول وتغفو بين أفراد العائلة.

يعود الطفل بعد بكاء مرير، يطرق قفصي الصدري، ثم ينكمش على نفسه في الداخل وينام!

مواد

جلستُ في المقعد الخلفي وأرخيت رأسي للوراء وأطبقت جفني، قال سائق السيارة : «سنسلك طريقا أقصر». لم ينبس أحدنا بكلمة.. عدلت جلستي واكتشفت أن باقي الركاب يشخرون وربما يحلمون بزوجاتهم وأطفالهم الذين يقلبون الاحتمالات بشأن ما ستحمله لهم الأيادي القادمة من أكياس..

المطر يغسل الكائنات في الخارج واستطعت أن أرى قطة بلا ذيل تعبر الشارع وتذكرت قصة كتبتها مرة وذكرت فيها قطة بلا رأس تحذو نحو بضعة سكارى كنت بينهم.. لم أضحك، احتراما للشخير.. ابتسمت فقط.. رصدت قطة أخرى بذيل كبير تقف على الرصيف. هل تنتظر «تاكسي»؟

من يستطيع التكهن بالأماكن التي تذهب إليها قطط هذه الأيام؟!

نمتُ وتسللتْ إلى منامي القطة التي بلا رأس وصديقي خالد وفتاة صادفتها في الطريق قبل عامين ووقعت في حبها. صحوت وكان ذيل السائق يمتد من تحت المقعد ويعيق حركة قدمي. لم نصل بعد والركاب ما زالوا نائمين.. أسمع شخيرهم.. الذي يخرج على شكل مواء!

تلويح

على حبل الغسيل قميص للرجل الوحيد..
على حبل الغسيل المقابل قميص للمرأة الوحيدة..
لا يتوقف الهواء.. وهما يلوحان لبعضهما طيلة النهار.
يصحو الرجل على مضض..
تصحو المرأة على مضض..
تماما في اللحظة التي توقف فيها الهواء.

خواء

على الطاولة خاتم وقرص أسبرين ووردة جافة مأزومة!
على الطرف الآخر من الطاولة كتاب فصل في الجحيم/ آرثر رامبو. ورقة بيضاء مرسوم فيها دوائر صغيرة متداخلة رسمت بارتباك.
منفضة وسبع سجائر وضحكتها.. ثمة نملة تقطع المسافة بين الخاتم والكتاب.. نملة تشعر بالخواء.. وتفكر في جدوى الحياة!

اقتراح

بعد مشاحنات ومناكفات طويلة اقترحنا على المتخاصمَين التحلّي بأخلاق رعاة البقر.. اقترحنا عليهما أن يسيرا باتجاهين متعاكسين على خطّ نرسمه نحن، بحيث يقبض كل واحد منهما على مسدسه ليطلق النار عند آخر الخط.

لم نأخذ في الحسبان أن ثمة قناصاً على أحد السطوح، أرداهما قتيلين بخفة ومهارة!

السعداء

في منتصف الجسر الهائل الذي يمرّ من فوق النهر الكبير، هناك طاولة صغيرة يقعي خلفها موظّف عجوز، لديه زبائنه اللطفاء.. يقوم كل زبون بملء استمارة خاصة يكتب في آخرها رسالته التي يرغب بتوجيهها للبؤساء الذين يقطنون المدينة هناك.. ثم يقفز!

ريم

تجلس ريم بجانبي في صالة السينما.. كان الوحش يقطع الرأس تلو الأخرى في الفيلم فتتشبث هي بذراعي وتغمض عينيها كلما حدث ذلك.

كنت سعيدا بهذا.. وكان الوحش متعاطفا معي.. فقد واصل قطع الرؤوس حتى آخر الفيلم!

خلل

نهض الروبوت (س) في مصنع الروبوتات في أحد الأيام وقد بدا أن خللا في التصنيع قد أصابه.

إذ أن الروبوت نمت له فجأة لحية كثة وأخذ يسير في الصالة نحو مجموعة روبوتات تؤدي حركات أشبه بالرقص..

وشوهد في يده سيف صقيل!

صورة

في الصورة أم واثقة وأب متجهم طفل يمسك بالونا ويضحك وطفلة تتعربش كتف الأب. الأب والأم متربعان وخلفهما تظهر أم الرجل مستاءة.. من الزوجة أغلب الظن. وأم الزوجة تحملق في الولد الضاحك الذي لم أتأكد تماما من أنه أحكم القبض على البالون أم لا...بسبب الشريط الأسود الذي يقطع زاوية الصورة!

حظوظ

زخة رصاص وقنابل أتت من جهة الشمال.

قال أحد الأموات: من حسن حظنا أننا متنا في الغارة الماضية!!

الموظفة

احتشدت كلمات كثيرة في صدري كأفراد قبيلة بدائية لم أستطع نطقها ولم ينفلت منها سوى «أهلا» عادية لا تسمن ولا تغني من جوع حين التقت نظراتنا عند مدخل البناية الضخمة وقالت الموظفة الجديدة: صباح الخير.

لماذا ابتسمت؟! لكنه يومها الأول هنا وتلك الابتسامة علت شفاهنا جميعا في اليوم الأول ثم سرعان ما تحولت إلى وجوم يعتاد.

هل قالت صباح الخير.. هل تلك الابتسامة العريضة لي فقط؟

وهذه الرسالة الطويلة التي أكتبها لها هل ستصل أم سأتراجع وأنسحب كعادتي في هكذا مواقف.

لكن مهلا ماذا لو كانت متزوجة؟ ربما لديها زوج ساذج من شبان هذه الأيام.. وربما تحبه كثيرا. أو قد تقرأ ابتسامتي في اليوم الثاني في العمل على أنها محاولة بائسة من كهل يرى في «صباح الخير» مفتاح لبناء أي علاقة تنتهي بزواج.. من المحتمل أنها وغدة أيضا غايتها أن تجعل مني مادة دسمة لسهرة الجمعة مع الرفيقات من أجل ضحك طويل. لماذا تفعل بي ذلك كله؟! ما الذي فعلته لها لتجازيني هكذا؟

في الغد سوف لن أقول لها صباح الخير.

تداعيات مسخ مسالم للغاية

إلى جمال مساعدة

لديّ أسبابي الخاصّة لأقيم في كهف كبير يقبع في جبل بعيد لا يصله الناس عادة.. انسلخت عن المدن الصاخبة وعن القرى المستغرقة في البؤس.. أوقد نارا صغيرة كل مساء وأجلس أنا ومجموعة من الضباع تهابني بلحيتي الكثة وشعر رأسي الغزير وأظافري التي تحوّرت واتّخذت شكل مخالب جاهزة للغرس!

العمران يطال الجبال ويصل إلى حدود كهفي وها أنا أخرج منه وأتّجه إلى جبل عمان وألقي التحية على موظفي الأمانة الذين يجلسون قبالة الدوار الثالث ويدخنون بأسى.. وأتحاشى المرور قبالة مطعم عالية.. في ذمتي دينارٌ ثمنا لوجبة بروستد تناولتها قبل أربعين سنة..

قد أصادف مصوّرا لصحيفة ذات شعبية شبه معدومة

ويتصدّر خبر خروجي صفحتها الأولى.. ويكون الخبر على شكل تساؤلات غامضة:

ما الذي جاء به في هذا التوقيت بالذات؟! هل ثمة دلائل تشير إلى تورطه في مقتل الرئيس «فلان الفلاني»؟! هل سيستولي على المدينة ويروّع سكانها؟!

أستقل شاحنة وأتجه إلى دوار الداخلية.. أوقد نارا على الدوار وسرعان ما يتجمهر من حولي رجال الدرك.. يساعدني أحد المارة (وافد مصري بالضرورة) بكتابة يافطة عليها مطلبي الوحيد:

أعيدوا إليّ كهفي أيها الأوغاد!

بكاء

كان القمر شاحبا.. والسماء متجهمة.. والهواء العليل في إجازة مفتوحة.. والأرض لم تكن تتكلم «عربي»... ولا أي لغة، كانت تلوذ بالصمت فقط.. الأشجار موحشة.. والجبال عصية على الفهم والسهول مساحات مناسبة للإرتماء وممارسة النكد العائلي خارج البيت.. وكانت الأيام متشابهة.. والحزن يرابط على عتبات البيوت.. وريم بعيدة.. وأنا تجتاحني رغبة عارمة في البكاء...

إنك تنهضين من نومك

إنك تبدلين ثيابك الآن دون أن تلتفتي إلى هاتفك المحمول الذي ترقد فيه رسالتي:

صباح الخير حبيبتي.. تفقدي جميع شاماتك قبل أن تغادري!

هل نبهت العصفور الذي حط على شباكك في هذه اللحظة أنه نسي أن يأخذ جرعة الإنسولين؟!

حسنا أنا في المقهى الآن وأستمع إلى ماجدة الرومي تسأل بأسى: مين إلنا غيرك يسأل علينا؟. وهي تعرف الإجابة مسبقا.. أفكر بكتابة قصة عن موظف بسيط فرح بالزيادة السنوية للراتب، تدهسه سيارة في طريق عودته للبيت ـ تعلمين أنني أبذل قصارى جهدي في قتل أبطال قصصي ـ السيارة تنطلق بسرعة ويلوذ السائق بالفرار والموظف من

شدة فرحه نسي أن يموت.. ها هو ينهض ويهرول عائدا إلى بيته ويلوح بقسيمة الراتب ليتفاجأ بزوجته وقد اشترت مزيدا من «طناجر الضغط».. يا للهول لقد كانت تعرف موعد الزيادة السنوية.. الرجل بعد ذلك يفطن أن عليه أن يموت فيطبق جفنيه مبتسما!

غموض

غموض يكتنف كلام المذيعة وهي تطمئن الجموع/ البلاد بخير.

غموض في حديث جدتي عن الغول الطيب.. فهو يكتفي بالتهام الأطفال الذين لا ينامون باكرا دون رصاص أو سكاكين أو تشويه.. هكذا.. بخفة ومهارة!

غموض في وجه الصيدلانية التي قالت كلاما باهتا وناولتني شريط الدواء.. حبة قبل النوم. تربكني تنورتك القصيرة سيدتي/ سأتناولك مرة قبل النوم.

غموض يداهم ركاب باص عمان ـ صويلح. جميعهم بدناء، وبلحى كثة. وجميعهم ترجلوا من الحافلة معي واتجهوا إلى الطابق الرابع في المستشفى ليمارسوا عملهم المعتاد.الغريب أن المرضى جميعهم بدناء، وبلحى كثة!.

الثالثة فجرا. الطابق الرابع موحش.. أنا في الممر، وحيد وغامض.. كشعركِ الطويل!

تداعي

أنا طفل يدحرج خطاه الأولى عند عتبة الدار وأبحث عن رائحة الثدي الأول ومسحة اليد الأولى على الشعر والقبلة الأولى والدمعة التي نفرت لأن الشمس تأخرت في نومها وكان ثمة ظلام..!

أنا شاب في مقتبل التعب وأبحث عن شيء ما ليتني أعرف ما هو..

شيء أهم من خبز الفجر ومن صوت ماجدة الرومي ومن ارتباك فراشة على مريول البنت التي عبرت بوابة المدرسة مسرعة يعتريها الخجل.

أنا عجوز في أرذل العمر أبحث في صفحة الوفيات عن أسماء لأصدقاء ابتلعتهم الحياة.. أطمئن.. النظارة الطبية الضخمة على الطاولة بجانب كوم الأدوية.. الكرسي المتحرك

الكسول قبالتي.. طقم الأسنان في الكأس.. وصورتي تثقل كاهل الحائط..

هل ثمة شريط أسود عليها؟!!

المسخ...وحيدا

ماذا يفعل مسخ وحيد في جبل عمان صباح كل يوم؟

تمر قطة بحقيبة كتف وماكياج خفيف يتلاءم وثقل هذا الصباح.. تقطع الدوار الثالث بثقة دون أن تربكها شاحنات الأمانة وحاويات القمامة..

تمر فتاة تأنقت أكثر مما يجب كأنها متجهة إلى احتفال مهيب.. تتلفت يمنة ويسرة لعلها تقع في الفخ.. مهلا طفلتي.. أنا الاحتفال الوحيد الذي يقام صباحا، وأنا الفخ الوحيد المنصوب على الدوار الثالث وشباكي فارغة.. نظيفة من الأهداف.. وأنا حزين كدالية بيتنا لأن سائحا أجنبيا غافلنا والتقط لها صورة قبل خمسة أعوام.

تمر السيارات بلا توقف.. وتمر في البال «خمارة» تحجبت حديثا لشح زبائنها..

ها أنا أمامها.. أدخل وأحيي الرجل الذي تأهب حالما رآني..

ـ تفضّل سيدي.. كيف أخدمك؟

ـ ماذا يفعل مسخ وحيد في جبل عمان صباح كل يوم؟!

دفء

ألسنة اللهب تتصاعد من «سطل» عتيق عند عتبة البيت..

صنعت رجل ثلج سكير يشاطرني وحدتي.. أطفال الحي يتجمهرون حولنا ويلحون علي بشكل جماعي كي أقرب النار من رجل الثلج المسكين، وأنا عجزت عن إقناعهم أن الدفء يقتله.

موت مؤجل

يقال أن موظفا بسيطا «وأخمن أنه جابي كهرباء» كان يركض عائدا من وظيفته ليخبر زوجته بأمر الزيادة السنوية.. ويذكر أن سيارة دهسته في طريق العودة لكنه ولشدة حماسه نسي أن يموت وها هو يواصل الركض صوب البيت ليتفاجأ بزوجته التي لم تنس موعد الزيادة السنوية قد استدانت واشترت مزيدا من الستائر وطناجر الضغط.. وفي تلك اللحظة تحديدا تذكر الرجل أنه مدهوس وعليه أن يموت حالا. وبالفعل: أطبق جفنيه.. وإلى الأبد!

صمت

على رصيف شارع الجامعة جلسنا بعد ثرثرة وضحك طويل.. اقترح أحد الأصدقاء أن نتناول ساندويشات ألسنة من مطعم قريب سدا للجوع الذي زحف إلينا. وبالفعل تناولنا طعامنا وعدنا إلى الرصيف لنستأنف السهر غير أن شهيتنا للكلام انقطعت فجأة وحط في المكان صمت ثقيل!

اعتياد

سقط الجنرال..

ورغم ذلك اتخذ الجميع وضعياتهم دون خطة مسبقة: اتخذ الهواء وضعية التأهب لاستقبال سحب الدخان والسماء وضعية الزرقة التامة لتبدو الطائرات أوضح بالتالي أكثر رعبا. الشاشات استعدت للأحمر القاني. اتخذ الجنود وضعية إطلاق النار. واتخذنا نحن وضعية الأشلاء!

سجن

أوضحتُ في ما مضى أن بي رغبة لأخطو الخطوة القادمة إلى الأمام، لكن من دون أن يعتلي أحدهم كتفيّ ويلوّح أمامي بجزرة!

وأنا حرّ.. أتمتم.. وأسمع جمهورا غفيرا في داخلي يضحك وأرى أناسا يسقطون عن مقاعدهم ويغمى عليهم من شدّة الضحك. لن أصغي لهم.

أعرف أنني سأنهض من جديد..

وسأرتطم بقفصيّ الصدري.. كما جرت العادة!

صداقة

الريح صديقة السنابل، تراقصها بغنج يغيظ السياج.

وأنا أقف عند أول الحقل فكّرت: عود ثقاب واحد قادر على أن يطيح بكل هذا الفرح... لأن الريح ستتكفّل بالأمر!

مائة عام من اللعنة

«ريم» التي عرفتُها تكره الأدب بأجناسه كافة، هاتفتني اليوم وقالت إنها لم تعد تحبني كما كانت، وهي حزينة لأنها تورّطت في روايات كثيرة على يدي.

في آخر المكالمة التي أمضيتُها صامتا نعتتْ علاقتنا ب «المترهلّة»، وقالت إنني سألاقي مصير «خوسيه أركاديو بوينديا» لا محالة!

تشرّد

كنت أفترش كرتونة لثلاجة صغيرة من المؤكد أنها لعائلة منكوبة وأنها فارغة الآن.. ألقي عليها بفرشة مليئة بالثقوب وأنام في شركة مهجورة أَشْفقَ عليّ حارسها.. اخترتُ المقسم كي أنام فيه.

وكانت الكوابيس تأتيني على شكل مكالمات من موظفين بؤساء يلحّون في طلب الإجازات!

إنسانية

خلعتُ حذائي المصنوع من جلد التمساح (أعرف أن بائع الأحذية يكذب)، دخلت البيت، خلعت قفازي المصنوع من جلد الماعز وحِزامي المصنوع من جلد الثعبان وقبعتي المصنوعة من جلد النمر...

ارتديت عباءة الفرو.

وجلست مع العائلة أتابع فيلماً وثائقياً عن عالم الحيوان.

وتطلبون مني آخر النهار أن أعاملكم بإنسانية!

الديك

اليوم تناقشت وجاري بأمر ديك الحارة الأخرى الذي يعتدي على شرف دجاجات حارتنا جهاراً نهاراً.. الديك الذي تجاوز كل الخطوط الحمر وبات يرعبنا نحن كبشر.

وتناقشنا أيضاً بأمر ديك حارتنا الذي يقيم مؤخراً في حاوية للقمامة، الديك المأزوم عديم المروءة.

وفي آخر الحديث اتفقنا أن نتدخل لنتخلّص من ذلك الديك وإلى الأبد..

ديك حارتنا أقصد!

مستورة

قال أبي:

ما إن أفرغ من التقطيب في مكان حتى أكتشف أن ثقباً جديداً وُلد للتو أو رقعة أخرى ارتخى خيطها أو انقطع، فأسارع للتقطيب هناك.. هكذا وعلى هذا النحو.. تبدو الحياة مستورة، لكنها ليست جميلة.. ليست جميلة على الاطلاق!

سوء فهم

(الظفر لا يخرج من اللحم).. حاولت جاهدا أن أشرح له:
المقصود بالمثل ليس ظفره هو ولحمي أنا!

حاجز

رسمت سلمى في دفترها دبابة وجندي نائم وحاجز وربما انشغلت بعد ذلك بفيلم كرتوني على التلفاز ولم تكمل الرسمة.. ونحن ما زلنا عالقين على الحاجز!

شجرة

قالت أمي:

أحن للغابة والشمس الواضحة والعشب ولرائحة الصيف تتصاعد من قلب الغابة.

الغابة؟!

ربما لأنها مقطوعة من شجرة!

ذكرى حدثت للتو

الشارع يزدحم بالمارة.. رأيتُ فتاة تتشبث بذراع حبيبها وكلبا ودودا يحك رأسه برجل سيدة تنهدت وهي تقطع الشارع ناحيتي.. رصدت شابا يقبّل فتاة في سيارة.. أب يحمل طفلين غارقين في الضحك لأن المطر اشتد، وكنت وحيدا وفي جيب معطفي زجاجة بيرة سأتجرعها بعد قليل.. ثم انفجرتْ في المكان أغنية أخذتني صوب البعيد.. وربما بكيت.. لأنها ذكّرتني بأشياء كثيرة.. لم تحدث بعد!

شجرة لوز

ريم شجرة وارفة أرتمي في ظلها على الدوام.. وثمة طبيب متكرش سيقطف لوزتيها هذا المساء.

قال: «تنزلان بصورة متكررة وعليّ إزالتهما.. كي تتحسن ريم».

مرحلة

لقد وصلنا للمرحلة الأسهل: الخروج من عنق الزجاجة.
(تخاطب نملةٌ زميلتَها في زجاجة نبيذ ملقاة على جانب الطريق)!

جيوب

يخرج الوحيد من باب العيادة وهو يسعل بشدة.. ويتمتم بأسى: المرة الوحيدة التي امتلأت فيها جيوبي كانت البارحة.
.. وكانت «جيوبي الأنفية» على أيّة حال!

ماراثون

ثمة رجل أغوته وردة على جانب الطريق، تحسّر وتأوّه لجمالها ولم يشأ أن يقطفها فتموت.. وفي غمرة احتفائه بها تذكّر أنه في ماراثون وعليه مواصلة الهرولة.. لكنه قرر فجأة ودون تفكير ألا يهرول، وبالفعل ظلّ متسمّرا في مكانه، ثم أصبح مع مرور الوقت جزءاً عديم الأهمية من حديقة على جانب الطريق.

أرق

تضطجع الخراف عندما يهبط عليها الأرق.. وتبدأ بعدّ مجموعة من الجزارين يقفزون الواحد تلو الآخر نحو الهاوية!

انتحار

قال موجها الكلام لنا، نحن الذين تجمهرنا أسفل المبنى وخفنا كثيرا على ذلك الوغد: لا تقلقوا.. حمقى أنتم إن اعتقدتم أنني أمتلك الشجاعة الكافية للانتحار قفزا من هنا.. مجنون من يقفز من هذا المكان.

عاد للوراء متواريا عن الأنظار.. ارتحت وارتاحت الجموع، وقبل أن يمضي كل واحد منا إلى غايته، زعقت رصاصة يتيمة في الأعلى.

تهريج

صرّح صديقي المهرج في آخر العرض: سأحدثكم بجدية.. أحتاج خمسة أحذية لأطفالي، وبنطالا لي، وسدادا لدين «أبو محمود»

كنت أعرف كم كان صادقا.. لكنني ضربت كفاً بكف وانفجرت ضاحكا مع الجمهور!

كرسي

أجلس ساندا ظهري على السور وأتأمل المقبرة.. أفعل ذلك منذ الأزل.

يمر طفل يهرول خلف العائلة.. يتوقف للحظة.. يسألني:منذ متى وأنت كرسي؟ ثم يستأنف الهرولة.. وليس ثمة جواب.

البعوضة السعيدة

تقف بعوضة يصل متوسط عمرها إلى سبعة أيام فقط على سطح النافذة لثوان معدودة.. تحدق في الرجل الذي نام وحيدا مثلما جرت العادة ثم تطير.. وربما تمتمت: ما أقسى الحياة!!

الزقاق

رجل وحيد يتمشى في الزقاق شارد الذهن..

دمعة ساخنة تترقرق في محجر العين..

صمت الشرفات المذعنة لأنين المارة..

ورغبة عارمة في العناق تجتاح قلب البنت التي تنبهت فجأة إلى البرتقالتين الصغيرتين تهتزان تحت القميص.

يرن هاتف الرجل فيغادر المكان على عجل..

والدمعة الساخنة سقطت.. فتنهدت نملة وقالت: ها هي تمطر من جديد!

تعتم الشرفات وتهرول البنت بقلب مذعور صوب البيت..

ويظل الزقاق وحيدا.

خنوع

في البداية قلت: نعم. بدت كلمة سلسة ومريحة ولا تجلب المتاعب. في المرة الثانية قلت أيضا: نعم.. لم أكن مقتنعا لكنها وفرت علي الكثير.

مع مرور الوقت صرت بلا وعي أنطقها وأصرفها بالمجان: نعم، نعم، نعم...

حدث هذا كله بسلاسة ويسر تام.

ثم ها أنا في هذا المكان المعتم أصغي لصوت شحذ السكاكين في الخارج.. ويأتيني السؤال من هناك :

هل أنت مستعد؟

حاولت مرارا أن أجيب: لا. لكنها ظلت تخرج في كل مرة: مااع!!

نهر

في الصف قالت سامية: أنا فراشة.. وراحت ترف بكلتا ذراعيها.

ارتدى أحمد زي شجرة وقال: أنا شجرة على جانب الطريق.

غرست ريم في شعرها ثلاث وردات وقالت أنا ورود تنبت على ضفة نهر جار..

أما أنا فقد انبطحت أرضا.. متخذا وضعية نهر تنبت على ضفتيه الورود!

مسير

ها أنذا أتوقف.. بينما يتابع حذائي المسير!

عمل

عمل عمل..

مسخ يصحو في تمام الساعة السابعة صباحا وينزع يومه الفائت عن الروزنامة.. يكوره في يده ويقذف به في سلة المهملات ثم يستأنف يومه الجديد.. ماذا يعمل المسخ عادة؟

عصفور يبحث عن كفيل ليحصل على قرض بنكي لبناء عش.

فراشة منقوشة على فستان ملقى على السرير.تنسى أنها مجموعة خيوط ملونة.. تنهض وتمضي إلى الدوام في حديقة البلدية.

حصان خشبي صغير يهبط عن رف الهدايا ويستسلم لحراثة الأرض.. ربما لأن خبرته في الحروب ضئيلة!

يا للحياة.. عمل عمل..!

وطن

يشبه خيمة تتقاذفها اللعنات، قال لاجئ.

يشبه برميل نفط ضخم، قال سمسار.

يشبه حقل سنابل مزروع بالألغام،قال مناضل.

يشبه بوصلة خانتها الجهات، قال كاتب.

يشبه دميتي التي ماتت قبل عام، قالت طفلة.

ثم تقيأوا جميعا على طاولتي وعادوا إلى كتاب التاريخ في الرف الأخير!

دوران

عندما تدربت في مركز الأمراض النفسية كان هنالك مجموعة من النزلاء يدورون في ساحة المركز الكبيرة بصورة متواصلة دورانا لا علاقة له بالتصوّف على أية حال. دوران يومي لا نهائي ويبعث على الملل.

في اليوم الأول كنت ألاحق مريضي كي أجري معه حوارا أفرغه في دفتري وكنت مضطرا للدوران جنبا إلى جنب معه وأسأله سؤالا واحدا كل يوم وأكرره مرات ومرات حتى يجيب وكان يتحتّم عليّ التحلي بالصبر لأنجز عملي.

لا أعرف كم مضى من الوقت على تلك الحادثة، لقد نسيت اسم مريضي ونسيت ملامحه فأعداد الناس الذين يدورون في الساحة أخذت تزداد بشكل ملحوظ.

ما أعرفه حقا أنني بدأت أستمتع في الدوران.. ننام باكرا وقد هدنا التعب لنصحو قبل شروق الشمس ونمضي على عجل إلى ساحة المركز الكبيرة!

القبيلة

ربطت الحمار بجذع شجرة وارفة وجلست تغني بصوتها الجميل عند النبع، كانت تغني لفراشتين حطتا على باطن كفها.

«ما أجمل السماء» قالت لصديقاتها الغاضبات بعد أن استلقت على العشب الندي الطويل.

اعتدلت جالسة وأنزلت ساقيها في الماء وواصلت الغناء.

مضى قرابة العشرين عاما على تلك الحادثة، لم تكن كفيلة بغسل عار القبيلة حتى بعد مقتل الفتاة.

فقد تشتت شملها وضاعت هيبتها بعد أن ظهر في فتياتها من تغني بصوت عال عند نبع الماء.

خصم

أجلس على يمين الطاولة وأحرك قطعة الشطرنج بهدوء محارب متمكن.

أنتقل إلى الجهة الأخرى حيث الكرسي الشاغر وأحرك قطعة الشطرنج بحنكة جنرال متكرش وأضحك من حماقة خصمي!

أعود للكرسي المقابل لي من جديد وألعب بارتباك. وبعد مراوغة مبتذلة واتهامات متبادلة أنهض عن الكرسي وأركل الكرسي الأخر بغضب.. وكلانا يخسر من جديد.

رتابة

عتبات كسولة.. أرصفة ومقاهي وشعراء.. رتابة تحتل المدينة وتجردها من صخبها.. وعود صارمة بالمجيء ولا أحد يأتي.. ضجر المكاتب عند الواحدة ظهرا والمعاملات التي تسير بحرص وبطء شديدين.. النهايات المتوقعة لقصص العشاق في الركن القصي من الحديقة. لم يظهر فارس واحد تتبعه الجموع ليكسر تلك الرتابة.. ولم تظهر فرقة من المهرجين في الساحة العامة كي تؤدي حركات مكررة نضحك عليها للحظات ثم نعاود الوجوم.. كما أننا لم نشاهد عروسا تسير حافية القدمين على رصيف هامشي.

وحدها السيدة التي ألقت بنفسها من الطابق السادس وغطت الدماء وجهها نجحت في كسر رتابة اليوم فانقضى.

قال أحد الذين تجمهروا في المكان: انظروا إنها الثامنة ليلا، مرحى، لقد مضى اليوم.

يا إلهي ماذا سنفعل غدا؟!

شجرة

تنبهت السيدة التي استيقظت قبل قليل على نحو مخالف لكل التوقعات أنها ليست شجرة.. وأن تلك الأنابيب الموصولة بجسدها توقفت عن الري بالتنقيط.. وأن الفلاح المسالم الذي تنبأ بموسم حافل لم يكن سوى طبيب متحمس. تبدو صورة الفلاح مشوهة بربطة عنق ومريول أبيض ونظارة طبية!

السيدة التي استيقظت قبل قليل على نحو مخالف لكل التوقعات لم تجهد ذراعها بالامتداد إلى الزر كي تقرع الجرس فيهرول إليها الطبيب والممرضة بالمعول والسماد والأنابيب.. إنما أغمضت عينيها وراحت تذوي بصمت.. تماما: كشجرة في حقل بعيد!

المجرم

حبات الزيتون ترتفع لتستقر على الأغصان فتنخفض بحنو..
الطفلة التي تخثر الدم على جبينها تنهض ويعود الدم للتدفق في الجسد الصغير فتحمل حقيبتها وتهرول عائدة إلى البيت..
تعود العائلة إلى البيت حيث ستنهمك الأم بإيقاظ الطفلة إلى مدرستها.. ترجع الشمس من حيث أتت.. الرصاصة تعود إلى فوهة البندقية.. ثم إلى المخزن.. البندقية إلى كتف القناص ثم إلى خزانته.. القناص إلى فراشه..

لنبدأ من جديد:

يصحو القاص في وقت متأخر من الليل ويداهمه الأرق فيقرر أن يكتب!

تلاتتي

مرة حلمت بوطن يتألف من شجرة في حديقة تحطّ على أغصانها العصافير.. .. هاجرت العصافير.

مرة حلمت بوطن يتألف من شجرة في حديقة.. .. استقالت الحديقة من مهنتها.

مرة حلمت بوطن يتألف من شجرة.... مَن قطعَ الشجرة؟

مرة حلمت بوطنٍ.. .... اقتادوه إلى المخفر.

.... مرة حلمتُ..

قراءة للمرحلة

يقول الأعمى مخاطباً صديقه الأعمى في نقاشٍ صاخب: لا بدّ أن نضع النقاط على الحروف، ونقرأ جيدًا تفاصيل المرحلة. يصمتان للحظة.. ينفجران بالضحك، ويتابعان الطريق.

يحدث في المخيم

في المخيم أم ترتق الثقب في جورب الصغير.. الثقب الذي يطل على العالم.

..

في حقيبة الصغير درس عن الكون الفسيح.

في الكون مدينة صغيرة.

في المدينة أحياء يحبها الصغير.

في الأحياء أزقة متسخة لا توصل لغاية واضحة.

في الحي ليال مشحونة باحتمالات غامضة عن مصير المخيم.

في المخيم خمس أشجار طاعنات في الوقوف!

في الخيمة أم منهمكة وطفل يحتضن حقيبة ممزقة ينام فيها الكون مطمئنا!

..

يصحو الطفل ويهرول إلى أمه فرحا/

لقد حلمت أننا في الجنة

ونمتلك خيمة أكبر!!

تحول

تقول الفتاة عند باب المدرسة: أنا منذ اليوم لست طالبة أنا فراشة. تلقي بحقيبتها جانبا وتهرول صوب الحقول.

يقول الآذن: أنا منذ اليوم سارية.. لعلم أسود، وينتصب كتذكار وثني عند دورة المياه.

يقول معلم التاريخ: أنا منذ اليوم لست مسؤولا عن ضياع الأندلس.. أنا هامش صغير.. ويغيب في بطون الكتب.

يتأفف المدير في الساحة العامة ويقول: لقد تعبت. أنا منذ اليوم لست حارسا لهذا المدى.. أنا المدى.

يقول الصف الرابع: أنا منذ اليوم ثلاجة موتى.. أو أصلحوا النافذة.!

تقول المدرسة: مللت الوقوف.. لو أنني....

ثم بلمح البصر تستجيب لها الطائرة.. بخمسة صواريخ!

عهدة

وقع الحارس على عهدته سبعون قبرا.. لم يعرف ما الذي دعاه بعد يومين فقط لعد القبور كانت واحدا وسبعين قبرا أعاد العد مرات ومرات.. قال: هذا سيكلفني غرامة، ربما أنا مرهق وعلي أن أنام.. في الصباح سأكمل. تثاءب بكسل.. ثم إلى قبره عاد!

الوحدة آخر الليل

ترنح بضع خطوات على الجهة المقابلة لي قبل أن يهوي بجسده على الرصيف ثم أخذ يسعل بشدة ويقذف البصاق عن يمينه وشماله كيفما اتفق.حدث هذا بينما كان ممسكا بكيسه الأسود الكبير الذي يرقد بين ساقيه كطفل مهذب. انتظرته حتى أشعل سيجارة وأخذ يجذب منها نفسا عميقا ويطلقه في الهواء كما لو أنه قاذف للصواريخ.. قلت: ربما هو تعب ومنهار تماما إلى ذلك الحد الذي دفعه لتجاهل حاوية القمامة الزاخرة بالقاذورات التي تقع على مقربة منا أو أنه أجلها ليصحو من قيلولته ويبدأ بها كوجبة أخيرة. لم يحدث أيٌّ من ذلك.فقط واصل العجوز إشعال السجائر والتحديق في النجوم الطازجة التي نبتت للتو في وجه السماء. إنه يصرف وقته كاملا في تأملها ويدخن بصمت

كما ينبغي لرجل أنهكته حكمة الشوارع والطرقات. ألم يغره منظر الحاوية.. تكاد تنفجر من كثرة ما تحويه. ها قد انتصف الليل. ما الذي يفعله هذا العجوز المثير للشفقة؟ كيف يطيل التحديق في النجوم وينسى قوت يومه هكذا.. سأتصرف حالا وأجعله يندم.

يا للهول ها قد أتت الشاحنة الملعونة وأفرغت الحاوية. أين ذهب العجوز؟ صافح السائق وها هو يلوح لي في الخلف وسط كل تلك القمامة.. أخذت الشاحنة تبتعد وكنت وحيدا وموحشا على الرصيف.. ممسكا بكيسي الأسود الذي يستقر بين ساقي كطفل مهذب!

ولد وحيد

الوحدة تقضم قلبي في المقهى قبل قليل وسط مجموعة من الشيوخ يلعبون الورق.. أشفق علي أحد العجائز فهربني في جيبه على هيئة «ولد ديناري»...وخرج منتشيا بنصر زائف!